**المحاضرة الثانية: - الاتجاه التّاريخي في الرّواية العربية.**

* **مراحل توظيف المرجعية التاريخية في الرّواية**
* **التّاريخي في الرّواية العربية**
* **موقف النّقاد من الرّواية التّاريخية**

**المحاضرة الثانية: - الاتجاه التّاريخي في الرّواية العربية**

**مهاد:**

لقد أخذت التّخوم التي انصهرت فيها الرّواية مع التّاريخ، ليُشگلا مادة تخييلية جامعة حيّزا معتبرا من كتابات النّقاد، فسُلّطت الأضواء على هذا التلاقح الذي سعى جميع المهتمين به إلى استشفاف طبيعة الحدود فيه، بين ما هو حقيقي وما هو تخييلي، وذلك تأسيسا على رؤية تفرّق بين ما يهدف إليه التّاريخ حين سعيه إلى محاكاة الماضي مقاربة أحداثه ووقائعه علميا، وهدف الرّواية المُخيّلة للتّاريخ فنّيا لتفيد ممّا حفظه ها هذا الماضي، متوسّلة لأجل ذلك خطابا سرديا تخبيليا متّصلا بالخطاب التّاريخي، باعتباره مسندا جاهزا وسابقا يدعم نصّها ويسهم في تشكيل المدنية وتوجيه الدلالة، ومنفصلا عنه في الوقت نفسه، بالنّظر إلى ما يميّز الرّواية من خصوصيات بنيويّة ومعنويّة.

ولبلوغ هذا التّواشج بين ما هو مرجعي تاريخي وتخييلي فنّي يوظّف الرّوائي آليات سردية تعتمد استراتيجيات وطرائق مختلفة للوصول إلى أفق يحقق فيه التاريخ المعلوم مساره، كما تتحقّق إنتاجية النّص تبعا لإمكانيته في استثمار عناصر التّاريخ وجعلها وسيلة لفهم الحاضر ومحاولة تجاوزه، ويتأتى ذلك عبر مراحل ثلاثة الأولى هي:

**مراحل توظيف المرجعية التاريخية في الرّواية:**

1. **مرحلة الانتقاء**: حيث ينتقي الرّوائي مادته مركّزا على ما يخدمه، محدّدا الأطر الزّمانية والمكانية لهذه الوقائع.
2. **المرحلة الثّانية:** فهي مرحلة التّخييل، وفيها تتمازج المادة المرجعية - بعد أن تعزل عن نصوصها الأصلية - بالنّص الرّوائي وفق طريقة من الطرائق الآنفة الذّكر.
3. **مرحلة القراءة والتأويل:** وتأتي بعد أن يأخذ التّاريخ شكلا جديدا داخل بنية نصيّة جديدة، فينأى ساعتها عن الفكر الأحادي والإرغام الأيديولوجية داخل خطابه الأم ليستقرّ بمعناه الجديد في نصّه الرّوائي المنفتح بعلاقاته التّأويلية مع القارئ .

**- التّاريخي في الرّواية العربية:**

لقد ارتبطت الرّواية العربية بالتاريخ منذ نشأتها، فجاءت مشهودة إليه، تستقي مادتها منه بجرعات وطرائق مختلفة، مؤمّنة بأنّها تعيش في زمن أقلّ ما يقال عنه أنّه زمن ضاعت فيه إنسانية العربي بتضييعه لقيمة التّاريخية والتّراثية، فكان لزاما عليها. من موقعها تعرية الواقع وتتبع تغيراته بناء على الماضي الذي اختارته سبيلا لتوطين الوجود، وحلا لتفسير المبهم، وعقلا متجذّرا لإيجاد أجوبة للوضع الذي صار إليه العربي، والمستقبل الذي سيتصيّر إليه، فعادت إلى التّاريخ العربي والإسلامي مضامينه الحضارية والرّمزية مستمدة منه مادة رأتها كفيلة بتحقيق ما تصبو إليه، وقد أسّست لذلك مجموعة من الدّوافع السّياسية والاجتماعية والفكية الحضارية والنّفسية والقومية الوطنية وغيرها.

وإذا كان احتفاء الرّواية الغربية بالتاريخ قد سبق الرّواية العربية بالنظر إلى زمن نضوج فن الرّواية عندهم، على يد كلّ من "والتر سكوت" (1771- 1832) و"ألكسندر ديماس الأب" (1802 . 1870) وغيرهما، إلّا أنّ هذا لا ينفي إفادة الرّواية الغربية من السّرود العربية القديمة من هذا الجانب فتخييل التّاريخ في النّص السرّدي العربي لم ينتظر القرن التّاسع عشر ليعلن میلاده، فما روي عن عنترة وقيس، وحكاية الجازية، وذات الهمة، وزرقاء اليمامة، إضافة نصوص السير والتراجم وأيام العرب، كلّها نتاجات حاولت تأبيد وقائع تاريخية فردية وأخرى جماعية كان لها موقع في نفوس العرب، فحظيت مكانة مرموقة في الخزانة السردية العربية والعالمية.

وإذا كانت الرّواية الغربية قد عادت إلى هذه السّرود وأفادت منها، فإنّ الرّواية العربية قد أفادت من الجانبين، فاستنبتت من تربة غربية بعضا من فنيات توظيف المرجعي في رواياتها، بل وحتّى وإن أخذت الفكرة عنها إن أردنا تأييد من ذهب إلى ذلك من النّقاد"[[1]](#footnote-2)، لكنّها عادت في الوقت نفسه إلى تراثها واستلهمت منه شيئا من مادته التّاريخية وطرائق التّعبير، والعودة إلى رواياتنا العربية يكشف ذلك، فما كتبه سليم البستاني وجرجي زيدان وفرح أنطوان وغيرهم يرصد هذا التلاقح والتناغم الفنّي في أعمالهم، بين ما هو عربي أصيل وبين ما هو غربي، وصولا إلى الرّواية العربية المعاصرة التي أصبحت تؤمّن بالجمع بين المختلف المؤتلف، بين ما هو أصيل وما هو دخيل، أكثر من أيّ زمن مضى، وذلك على غير ما ذهب إليه "إكانتي كراتشوکفسکی "وبعض المهتمين بالموروث الأدبي العربي، حين قال في كتابه " الرّواية التّاريخية في الأدب العربي الحديث": "الرّواية التّاريخية لا تمثل هنا نموا عضويا للرّواية العربية المنبثقة عن القرون الوسطى بقدر ما تمثّل نباتا مأخوذا من تربية أوروبية أعيد غرسه في حقل عربي"([[2]](#footnote-3)) وحجته في ذلك أنّ الرّواية مظهر ثقافيّ استتبع كلّ مظاهر التّبعية الثّقافية العربية المجلوبة من الغرب، مغفلا جانبا مضيئا فيها يتعلّق بارتكازها على سرودها القديمة في أكثر من موضع فتي، تأهيك عمّا أخذته الرّواية الغربية عن هذه السرود في أطوار نشأتها الأولى.

**موقف النّقاد من الرّواية التّاريخية:**

وبالعودة إلى رواياتنا العربية وتاريخ اتصالها بوقائع الماضي، نجد أنّ كثيرا من النّقاد قد أجمعوا على أنّ التأريخ للرواية المخيلة للوقائعي بشكل واضح ينطلق مما كتبه سليم البستاني بداية من "زنوبيا" التي صدرت سنة 1871 م وبعدها "بدور " سنة 1872م و "الهيام في فتوح الشام" سنة 1874م، لتردفها أعمالجرجي زيدان التي غطت ما كتبه البستاني كما وكيفا، فأصدر "المملوك الشارد" 1891م، "استبداد المماليك" 1892، "جهاد المحبين " 1895، "عذراء قريش" 1898، وغيرها من مؤلفاته الكثيرة تحت ما سمي بسلسلة روايات تاريخ الإسلام (1891 - 1914)، لتظهر بعدها نتاجات فرح **أنطوان**، ويعقوب صروف، وأمين ناصر وغيرها من الأعمال (**[[3]](#footnote-4)**) التي أرادت نشر التاريخ في شكل رواية، ترغيبا للناس في مطالعته والاستزادة منه، فجاءت هذه الروايات كلها وهي بمثابة نتاجات أولى لرعيل أول أوجد عتبةتاريخية روائية للأجيال المبدعة اللاحقة معتمدة على التاريخ في بناء حبكتها، قاصدة تمثيل الوقائع التاريخية تمثیلا يقترب من الحقيقة، فلا تجاوزها إلى المساءلة والتحليل إلا فيما ندر، فتمثلت أحداثا تاريخية كانت في الرواية بمثابة المركز، أو بصيغة أخرى، قصة إطارا تدور في فلكها مجموع ما يقحمه الروائي من مادة مخيلة، قاصدة التعريف ببطولات السلف ومآثرهم للاقتداء بهم، وتغذية النزعة القومية والوطنية، فاتجه أغلب روائي هذه الفترة - في موقفهم من التاريخ - اتجاها واحدا، فانصرفوا إلى "ذكر النوابغ والأبطال، وعرض أمجادهم، ومآثرهم، والإشادة بمفاخرهم وبطولاتهم ومنها التعرض للمأثور من وقائع العرب، وإبرازها ناصعة مشرقة "[[4]](#footnote-5) ، وذلك بعد أن توضع المادة التاريخية في سباق مشوّق يستقطب القارئ، يقول جرجي زيدان بهذا الصّدد: "أما نحن فنأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، ندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ، مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له في الحقيقة"([[5]](#footnote-6)) وهو ما يعني أنّ الرّوائي - وإن لم يصرّح بذلك زيدان - يصوغ المادة التاريخية صياغة جديدة فلا ينقلها كما هي في التّاريخ، لكن يشترط في هذه الصياغة أن تحافظ على جوهر المادة التّاريخية المعاد صياغتها في العمل الأدبي.

وبالنّظر إلى طبيعة تعامل هؤلاء الرّوائيين مع المادة التّاريخية سجّل النّقاد ظهور جيل ثان استلهم لحظات ومواقف قديمة من التاريخ العربي والإسلامي، وكان هذا "الاستلهام للأشكال والموضوعات التراثية والوطنية والاجتماعية والأخلاقية والعاطفية تجليات أدبية - مستويات دلالية مختلفة - لإبراز الذات القومية في مواجهة الغرب" ([[6]](#footnote-7)) ومن هؤلاء عادل كامل وعبد الحميد جودة السحار ومحمد فريد أبو حديد وعلي أحمد باكثير وعلي الجارم ... وغيرهم، وقد صدرت روايات هؤلاء في مناخ ثقافي جديد، وسياقات خارج نصية مختلفة، تتميز باحتدام الصّراع العربي الغربي، وبظهور حركات التّحرر وهو ما اقتضى رواية تتخذ لتخييل الوقائعي وسائل جديدة تساوي بين ما هو متخيل وبين ما هو وقائعي، أو تكاد، كما أنّها تركّز في موضوعها على البطولات، مستدعية التاريخ الجيد للأمة، الباعث على بث روح المحاكمة، أو روح الانتشاء بالانتصارات المحققة لدى الدول العربية المستقلة، يقول محمد مندور عن بعض مؤلفات هذا الجيل: إنّ "الاتجاه التّاريخي الذي ابتدأه جرجي زيدان، وجاء بعده فريد أبو حديد فجدد في معناه وحدد من وسائله أوشك أن يخلقه خلقا جديدة في "الملك الضليل " و"زنوبيا"، وتبعه في ذلك شاب ينبعث منه الأمل وهو على أحمد باكثير كاتب "أخناتون " وسلامة القس" و"جهاد التي نالت إحدى جوائز وزارة المعارف"([[7]](#footnote-8))

وبالرغم من هذا العدد الوافر من الروائيين العرب الذين استلهموا نصوص التاريخ في فترة متقدمة، وبالرّغم من نتاجاتهم الكثيرة والمختلفة، إلا أنّ سيرورة الأدب أوجدت جيلا ثالثا من الرّوائيين خلف الجيلين بنظرته المخالفة، جيل معاصر لا يكتب التّاريخ من أجل كتابته بل يأتي به لكي يوظفه في سباقات نصية جديدة تحمله على البوح بما كان يخفيه أو على الأقل بغير ما كان يصرح به، مقدما قراءة واعية له، لا تنكر فضله لكن تسعى لتعريته من أي وثوقية أو تضليل، فلا ترتبط روایات هذا الجيل "بالتاريخ لتعيد التعبير عما قاله بلغة أخرى، بل ترتبط به للتّعبير عمّا لا يقوله "([[8]](#footnote-9))، فتسائله وتجاوزه في أكثر من موضع مستعيرة وقائع تاريخية في تخييل الحكاية الروائية معيدة تشخيصها "تمثل انعكاساتها على الإنسان والمجتمع ... مع محاولة فهم الواقع والتفكير في وجوده بأفق متخيل اجتماعي وتاريخي قادر على المحاورة والانتقاد "([[9]](#footnote-10))، رافضة التصورات الأولى لتوظيف التاريخ في الرواية العربية بالمعنى الذي أشار إليه "زيدان وأضرا به من المؤسسين لهذا النمط من الكتابة، وكما جاراه في ذلك كثير من النقاد فهي تصورات حسبهم استنفدت طاقتها الوصفية بعد أن جرى تحويل جذري في طبيعة تلك الكتابة السردية التاريخية، التي استحدثت لها وظائف جديدة لم تكن معروفة آنذاك "([[10]](#footnote-11)).

وفي سياق داعم لهذه الفكرة أعيد النظر مرة أخرى من طرف الرّوائيين والنّقاد في حدود التّاريخ والمتخيّل الرّوائي معتبرين الزّمن الفاصل بين الرّوائي العربي المهتم بالوقائع التاريخية تماسفا يحفظ له الحق في التأمل بتمعن فيما سيتخيله، وعندما قالوا بالتخبيل قصدوا إخراج المادة التاريخية من دائرة الإيمان واليقين إلى دائرة العقل والشكّ، حتى وإن صار النّص الرّوائي جزءا من الذّاكرة الجمعية، وفعلا مؤسّسا في نسق أكبر لمرويات كبرى تحتفي بما هذه الذّاكرة، فجاءت هذه الرّوايات منطق التّجارب المثل منطلق هذا التّحول الجديد في الرّواية العربية الذي يحاكي بدوره الرّؤية الحداثية للعالم، ومستهل تقديم التاريخي بعيدا عن المفاهيم الكلاسيكية للتاريخ المخيل، ومن هؤلاء الرّوائيين، نذكر : صنع الله إبراهيم وحنا مينه، جمال الغيطاني، نجيب محفوظ، إدوار الخراط، الطيب صالح، بهاء طاهر، إبراهيم الكوني إميل حبيبي، الطاهر وطار، عبد الرحمن منيف، واسيني الأعرج، أحلام مستغانمي ... وغيرهم، وهم روائيون آمنت كتاباتهم هذا التحول البنيوي والدلالي في توظيفها لمادة التاريخ فصنعت لنفسها شكلا جديدا يستأنس إلى التاريخ خدمة للنسق الفكري الذي تقوم عليه الرواية، فجاءت أعمالهم مخيلة للتاريخ متحرّرة من الوثيقة ومستندة إلى تحارب تنتصر للممكن"([[11]](#footnote-12))، أكثر من انتصارها لما كان، أي أنها انتصرت للخيال على حساب الواقعة التّاريخية، وهو ما منح هذا الجيل مساحة كبيرة من الحرية خولت له سلطة التمييز والرفض والتصحيح والتّحويل والتحوير، ناهيك عما منحته له من قدرة على بعث التاريخ الحضور، وإيراد التاريخ المغمور، والنبش في ركام الوقائع، فاستنطق هذا الجبل ظلال نصوص سلطوية، مستشفا ما عكسته من هوامش ومن هزائم سكت عنها وطنيا أو قوميا، هذا إن لم يتجاوز بجرأة تحليلا و تأويلا هذا الجانب إلى الجانب المظلم من هذه الهزائم.

1. - محمد رياض وتار، توظيف التّلراث في الرّواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سوريا، ط1، 2002م ص: 9 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-2)
2. - إكانني كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، تر: عبد الرحيم العطاوي، دار الكلام، الرباط - المغرب، ط1 |1989، ص: 20 . [↑](#footnote-ref-3)
3. - بنظر : عبدالرحمن باغي، في الجهود الروائية ما بين سليم البستاني ونجيب محفوظ، المؤسسة العيية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان ، د ط، د ت، ص159 وبعدها [↑](#footnote-ref-4)
4. - نواف أبو سارية الرواية التاريخية، بماء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة - الجزائر، ط1، 2004، ص: 27. [↑](#footnote-ref-5)
5. - جرجي زبان، الحجاج بن يوسف الثقفي، مطابع الهلال، القاهرة - مصر ، دت ، المقدمة [↑](#footnote-ref-6)
6. - محمود أمين العالم، الرواية بين زمنيتها وزمانها، مجلة فصول، القاهرة - مصر ، مج 12، ع12، 1993، ص17. [↑](#footnote-ref-7)
7. - محمد مندور، في الميزان الجديد، مكتبة نهضة مصر،دط، د ت، ص، 39. [↑](#footnote-ref-8)
8. - عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رؤية تاريخية،؟ ص63. [↑](#footnote-ref-9)
9. - المرجع نفسه، ص65. [↑](#footnote-ref-10)
10. - عبد اللّه إبراهيم، التّخيّل التّاريخي، ص13. [↑](#footnote-ref-11)
11. - عبد الفتاح الحجمري، هل لدينا رؤية تاريخية،؟ ص64. [↑](#footnote-ref-12)